الإنسان في فكر الإمام النُوْرْسي
وجودا، ومهمة، وغاية

الأستاذ الدكتور فاروق حمادة[Ψ]

حمداً لك يا من أنرت هذا الوجود بكتابك وهديك، الذي يحمله الركع السجود من عبادك، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله نبيك وعبدك، وعلى آلــه الأخيــار، وصحابته الأبرار، أما بعد :

فإن من المعالم الفكرية الإسلامية البارزة في القرن الرابع عشر الهجري، الإمام سعيد النُوْرْسي، الذي شق طريقا في الدعوة الإسلامية جديدا، وقــاوم ديــاجير الظلمــات والمدلهمات بنور القرآن وحيدا فريدا، وقدم لمن حوله وللآتين بعده مهيعا قرآنيا رشــيدا سديدا، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين، وبوأه في الملأ الأعلى مكانا رفيعا حميدا.

وإن الحديث عن هذا الإمام الفذ ذو شجون وآفاق، وألوان متعددة، وأطباق وحري بأهل الدعوة والفكر وحملة القرآن والرسالة، ودعاة السنة، ومحاربي الجهالة والضلالة أن يقفوا أمام رسائله طويلا، ويرجعوا البصر في أفكاره المشعة ونظراته للكــون والحيــاة والإنسان تكرارا ومرارا، ليمتحوا منها في عالم لم يتغير كثيرا عما عاشه هــذا الإمــام، وعالج قضاياه بكل حكمة واتزان واهتمام، بل إن كثيرا مما عالجه قــد تعمــق جرحــه واستفحل خطره، وما أحوج البشرية إلى البلسم القرآني، والدواء الرباني لتضميد جراح الروح والنفس والجسد والمجتمع، فقد كان هذا الإمام يقدم المراهم والبلاسم من صيدلية القرآن جاهزة للاستعمال، سهلة قريبة المنال.

وإني سأتناول – بعون الله – في هذه الحلقة موقع الإنسان في تفكير هذا الإمــام في وجوده، ومهمته، وغايته، وهو حديث طويل يمكن النظر إليه من جوانب شتى، أتنــاول اليوم بعضها على الاختصار، مكثرا من أقواله، لأنها تحمل أفكاره صافية نقية...

[Ψ] ستاذ كرسي السنة النبوية وعلومها بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس – الرباط – المغرب.

1- لقد أعلن الإمام النُورْسي في كثير من كتاباته، أن عمله لا يعدو أن يكون عمل دلال في حانوت مجوهرات القرآن، يدل الناس على هذه المجـــوهرات المتاحـــة المباحـــة للآخذين، ليقبسوا منها، وينتفعوا بها، ويصلوا إلى الغاية المرجوة منها.

وبذلك يعلن أن ميدان عمله هو الإنسان أينما كان، وبأي لون، ودين وزمان. يقول رحمه الله في ذلك: شخصية مؤقتة خالصة لخدمة القرآن وحده، بكـــوني دلالا لخزينـــة القرآن الحكيم السامية [1].

ويقول: وكما يقوم شخص مفلس لا يملك شيئا بدور الدلال لدكان مجوهرات غالية جدا، فأنا كذلك دلال أمام دكان مقدس هو القرآن الكريم [2].

ويقول: فنحن مع أننا مفلسون ليس لنا شيء، إلا أننا أصبحنا خـــداما ودلالـــين في معرض أغلى المجوهرات [3].

ويقول: فأنا لست المالك للبضاعة – بضاعة النور – بل لست إلا دلالا ضعيفا بسيطا في حانوت مجوهرات القرآن [4].

لقد كان يعتز بهذه المهمة أيما اعتزاز، ويجعلها له أعظم انتماء، وأغلى شرف.

أما سوق القرآن، ودكان مجوهراته، فهو هذا الكون الفسيح الرحيب بكـــل أنـــواع مكنوناته، وكل مصنوعاته وأشيائه، من وهاد وبحار، وجبال وأشجار، وأرض وسمـــاء، ونجوم متدلية في جميع الأرجاء، وأزهار وأثمار ...

ويربط هذه الجواهر التي تحمل طابع القدرة الإلهية، والحكمة الربانية، وبدائع الصنعة الصمدانية، يربطها بآي القرآن الكريم المسطور المقروء، ويوائم بإحكام بـــين المســـطور والمنظور ليؤكد لكل ذي لب، أن الذي أنـــزل هذا المسطور، هو الذي أبدع وأوجـــد المنظور، وكلاهما جواهر تدل على بارئها. فياله من حكيم عليم؟!!

يقول رحمه الله: إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مشهدا لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشرا لغرائب مخلوقاته الجميلة، ومقرا لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجدا لعباده المتراصين عليها صفوفا، ومكانا لأداء عباداتهم.

هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نورا وضياء [5].

2- لقد نظر الإمام النُورْسي في عوالم الكون التي يقول: إنها تبلغ نحوا من ثلاثمائـــة ألف أو أربعمائة ألف عالم، وتأملها جيدا في دورانها وتبدلاتها، في موتها وحياتها وحـــدد موقع الإنسان المخاطب منها، وبين ما فيه من ضعف وقوة، وإقدام وتـــأخر ومواهـــب وطاقات... فوجد أن هذا الإنسان ضعيف ومصائبه كثيرة، فقير ولكنه في حاجـــة إلى الازدياد، عاجز إلا أن تكاليف عيشه مرهقة ...[6]

وهذا الإنسان ضعيف بالفطرة، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التي تورث الحزن والألم وهو في الوقت نفسه عاجز جدا، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جدا، وهو فقير جدا مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار، مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه... يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود ..[7]

ولكن هذا المخلوق الضعيف العاجز القاصر قد زوده الله بأجهزة، ومواهب فاق بها سائر المخلوقات، وارتقى في القرب من ربه إن أطاعه أعلى الدرجات، فكان ألطف ثمرة العالم، والمعجزة الجامعة للخالق الحكيم لأنه نموذج مصغر للكون كله

يقول رحمه الله: إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، لذا فالإنسان ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الإلهية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا ..[8]

بل إن الإنسان – كما يراه الأستاذ النُورْسي – هو فهرس للكون العظيم، ونسخة جامعة لما في الوجود من خواص حتى يشعره الحق سبحانه وتعالى جميع أسمائه الحسنى المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة ..[9]

وأما عن أجهزته التي أكرمته بها الرحمة الإلهية، وقد فاق بها سائر المخلوقات، وتميز بها عن سائر الموجودات، وغدا سيد الكائنات، فيقول رحمه الله: الإنسان الذي وهبت له هذه الأجهزة المعنوية واللطائف الإنسانية، التي إذا ما قيست كل واحدة منها بما في الحيوان لظهرت أنها أكثر انبساطا، وأبعد مدى بمائة مرة، فمثلا؛ أين عين الإنسان التي تميز جميع مراتب الحسن والجمال ؟

وأين حاسته الذوقية التي تميز بين مختلف المطعومات بلذائذها ؟

وأين عقله الذي ينفذ إلى قراره الحقائق، وأدق تفصيلها ؟

وأين قلبه المشتاق إلى جميع أنواع الكمال ؟

أين هذه الأجهزة وأمثالها مما في الآلات الحيوانية البسيطة التي قد لا تنكشف إلا لحد مرتين أو ثلاث ؟! فما عدا الأعمال الخاصة المناطة بجهاز خاص في حيوان معين!! والذي يؤدي عمله بشكل قد يفضل ما عند الإنسان الذي ليس من مهمته مثل هذه الأعمال والوظائف ... وبسبب فطرته البديعة المهيأة لشتى أنواع العبادة، فقد منح استعدادا جامعا لبذور الكمال ..[10]

هذا الإنسان الممنوح الموهوب المفضل يراه الأستاذ النُورْسي، وفي يده مفتاح يفتح به طلسم الكائنات، ويدخل أبواب الكنوز المخفية لخالق الكون، وهي له دون غيره، فهي

مرتبة لا يدانيها أحد حتى الملائكة المقربون، الذين لا يتخطون مهما همـم ولا يتعـدون مأموراتهم ...

يقول رحمه الله : إعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهرا، إلا أنها منغلقة حقيقة، فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح كل أبواب العالم، وطلسما، يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون ..[11]

وهذا الكون قد سخره الله تعالى بكل أرجائه لهذا الإنسان يسبح فيه عابدا، خاشعا، سيدا مع ضعفه، مشرفا مكرما، مع قصوره، وحقارة ماديته. وفي هذا يقول الأستاذ النُوْرْسي : نعم أيها الإنسان، إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزء صغير، وجزئي حقير، ومخلوق فقير، وحيوان ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتزاحمة المدهشة، إلا أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية المنورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء المحبة الإلهية، سلطان في هذه العبدية ... وإنك كلي في جزئيتك، عالم واسع في صغرك ... لك المقام السامي مع حقارتك، فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة حتى يمكنك القول : إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكنا، وجعل لي الشمس والقمر سراجا ونورا، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادما ذليلا وأخيرا جعل لي النبات زينة وأثاثا، وبهجة لداري ومسكني [12].

بل إن هذا الكون عند الأستاذ النُوْرْسي سفرة عظيمة تتلذذ بها أنواع المعدات الإنسانية المادية والمعنوية، وله بإنسانيته السيطرة على جهات شتى من الأرض وما حولها لأنه ثمرة الخلق، ومعرض الصنائع البديعة للخلاق الحكيم، مما جعل هذا الإنسان مثار إعجاب لأهل السماوات، يقول رحمه الله : وما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض، ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسخرا أكثر الأحياء له، جاعلا أكثر المصنوعات تحوم حوله، وفق مقاييسه وهواه وحسب حاجاته الفطرية، ينظمها ويعرضها ويزينها، وينسق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضا نظر أهل السماوات والأرض قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له من هذه الجهة أهمية عظمى، وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو النتيجة العظمى، وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الله ..[13]

هذا الإنسان يراه الأستاذ النُوْرْسي أروع معجزات القدرة الإلهية، بمثابة كون مصغر، وكأن الحياة وسيلة لانطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير بما تظهر فيه ما يشبه فهرس الكون العظيم، كما تجعله في رباط وثيق مع معظم الموجودات[14].

ولقد بين الأستاذ النُوْرْسي في تفسير دقيق يعد من مبتكراته، وعميق نظراته، أن الأرض كانت في القرآن الكريم تقرن دائما بالسماوات، فالأرض واحدة توازي السماوات السبع جميعا، فلماذا يا ترى ؟

يقول رحمه الله : ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان ومسكنه وهو الأرض كفء للسماوات معنى وصفة، ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهد جميع معجزات الصنعة الربانية ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها...

وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة ، أي الإنسان ومن هذه العظمة المعنوية للأرض وأهميتها من حيث الصنعة جعلها القرآن كفؤا للسماوات وعدلا لها مع أنها بالنسبة للسماوات كالثمرة الصغيرة بشجرتها الضخمة ... فيكرر الآية الكريمة : [**رَبِّ السَّمَوَات وَالأَرْضِ**] [15].

ويقول : كأنها قلب صَغير لجسدٍ ضخم [16].

أليس هذا هو الإنسان، وهذا هو موقعه من الكون حقا كما صوره ببلاغة وبراعة هذا الإمام؟!! ولا يزيد تقدم العلم والمعرفة، واكتشاف مجاهيل الأرض وأقطار السماء، وتقارب البعيد، وتيسير العسير، لما قاله هذا الإمام إلا تأكيدا وتعضيدا، وما ذلك إلا لأنه اغترفه من معين جواهر القرآن.

3- هذا الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، وبلغ من التشريف والاحترام المبلغ العظيم أليست له مهمة وغاية في رحلته وسياحته الدنيوية هذه ؟ أم أنه وجد عبثا، وسيذهب سدى؟! [**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**] [المؤمنون:115].

يفصل الأستاذ النُوْرْسي رحمه الله مهمة هذا الإنسان فيقول : إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا، ووهبت له مواهب واستعدادات مهمة جدا، وعلى هذا أسندت إليه وظائف جليلة ...

ولكي يقوم الإنسان بأعماله، وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغب ورهب لإنجاز عمله. [17]

لقد خلق الإنسان لعبودية الله، بعد معرفته، ومعرفة الله أهم قضية في حياة الإنسان، ولذلك نذر الإمام النُوْرْسي نفسه لتبصير الغواة الضالين بهذه الحقيقة، ودفعهم في

طريقها، وأقام الحجج والبينات من الوجود المادي على قطعيتها، بما لا يدع مجالا للشك عند العقلاء، يقول رحمه الله : إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان، وأجل وظيفة هو إنقاذ الإيمان والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة [18].

إن خدمة رسائل النور هي إنقاذ الإيمان، وأما الطريقة والمشيخة فهي تكسب المرء مراتب الولاية، وإن إنقاذ إيمان شخص واحد من الضلال أهم بكثير، وأجزل ثوابا من رفع عشرة من المؤمنين إلى مرتبة الولاية [19].

إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترمم بيتا صغيرا مهدما، بل تعمر أيضا تخريبات كلية ... نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان [20].

وإن ما أقامه الأستاذ النُوْرْسي على قضية الإيمان ومعرفة الله من أدلة وبراهين ساطعة يصعب حصره، ولكنه كان ينبه الغافلين إلى هذا الكون ليصل بذلك إلى معرفة من كونه، وقد كانوا في تلك الفترة – وما زالوا – ينكرون الغيب، ولا يؤمنون إلا بالمادي المحسوس، فانظر على سبيل المثال النافذة العشرين من الكلمة الثالثة والثلاثين في تفسير قوله تعالى: [**فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ**] [يس: 83]، وقوله تعالى: [**وَإِنْ منْ شَيْءٍ إِلاَّ عنْدَنَا خَزَائنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بقَدَرٍ مَعْلُومٍ**] [الحجر: 21-22] حيث يقول : ... وانظر الآن إلى الرياح تر أنها تجري لإنجاز وظائف وخدمات جليلة ...

وانظر الآن إلى الينابيع والجداول والأنهار، وتأمل في تفجرها من الأرض والجبال، تجد أنها لا مصادفة فيها ولا عبث قط ...

انظر إلى الأزهار والأثمار تجد أن بشر وجوهها، وحلاوة مطعوماتها، وجمالها الأخاذ ونقوشها البديعة، وشذى عطرها الطيب، بمثابة دعاة وأدلاء إلى ضيافة الرب الكريم والمنعم الرحيم.

وانظر إلى الطيور ...

وانظر إلى السحب الثقال ...

وانظر الآن إلى السماء وتمعن في القمر وحده من بين أجرام لا حصر لها...

وهكذا يفتح كل ما ذكرنا من العناصر الكلية، ابتداء بالضوء، وانتهاء بالقمر، نافذة واسعة تبين وجود الله سبحانه، وتظهر وحدانيته، وتعلن عن كمال قدرته وعظمة سلطنته بمقياس أعظم وأكبر، وبألوان شتى، وأنواع مختلفة ...[21]

ويقول رحمه الله: أيها الغافل، تأمل في وجه الكائنات تجد أن صحيفة الموجودات ما هي إلا بمثابة رسائل متداخلة، بعضها إلى البعض الآخر، مبعوثة من قبل الأحد الصمد،

وأن كل رسالة منها قد ختمت بما لا يعد من أختام التوحيد، ترى مـن يجـرؤ علـى تكذيب هذه الأختام غير المتناهية..[22]

وإن الأمر الباهر المدهش عند الأستاذ النُوْرْسي في سوقه الأدلة المادية الملموسة هو أنه يربطها بحكمة وجودها، وآثار هذا الوجود، وبموضعها الدقيق المحكم من الكون، وهـي في خدمة الإنسان وتيسير الحياة، إذ لو تخلفت لاختل النظام، وانعدم الأنام، وكلهم غير قادرين على التصرف فيها أو تغييرها، فما عليهم إلا الإذعان والاستسلام.

ويبن رحمه الله تعالى أن هبوط آدم إلى الأرض، وحلول هذا المكرم ضيفا فيهـا لـه حكم جليلة، ومرام بانية سامية، يقول رحمه الله :

حكمته التوظيف، فقد بعث إلى الأرض موظفا موكولا إليه مهمة جليلة، بحيـث إن نتائج تلك الوظيفة هي جميع أنواع الرقي المعنوي البشري، وانكشاف جميع استعدادات البشر ونمائها، وصيرورة الماهية الإنسانية فيه مرآة جامعة للأسماء الحسنى..[23]

هذه الوظيفة الإنسانية التي أوكلت يفصلها في موضع آخر ويجعلها ثلاثـا أساسـية أنيطت بهذا الإنسان :

الأولى : تنظيم جميع أنواع النعم المبثوثة في الكائنات، وربطها بأواصر المنـافع الـتي تخص الإنسان، فيربط رؤس خيوط النعم بمصالح الإنسان ومنافعه، ويغدو الإنسان عندئذ أشبه ما يكون بفهرس لأنواع ما في خزائن الرحمة الإلهية، ونموذجا لمحتوياتهـا، ويكـون بذلك : المحور، والمظهر، أي محور هذه النعم، ومحل ظهورها.

والثانية : بأهليته وخصائصه يصبح قابلا لتلقي الخطاب الإلهي، ومعرفتـه ببـدائع الصنعة التي تدور حوله، ويمسك خيوطها، وبذلك يتوجب عليه تقـديم آلاء الشـكر والثناء، والحمد الشعوري التام على ذلك، يقول رحمه الله : إن الصبغة الربانية التي هـي فطرة الإنسان قد فتحت زهرة الخطاب الإلهي..[24]

والثالثة : بأهليته المحدودة، وقدراته الدقيقة، يقوم بمهمة عاكسـة في هـذه الحيـاة لتجليات الأسماء الحسنى، وخاصة (الحي القيوم)، فيدرك القدرة المطلقة من خلال عجزه، والرحمة الواسعة من ضعفه وفقره، وهو بهذا مرآة قياس للصفات الإلهية ويدرك من خلال محدود علمه، وإرادته وقدرته، الصفات الإلهية التي تتجلى في الخلق والعظمة والحكمـة، وبما أودع فيه من حب البقاء، وغرز في فطرته من النفور من القبح والفناء. فإنه بـذلك يعكس صفات (الحي الباقي الجميل) ..[25]

فتتفتح في قلب الإنسان المحبة والتعلق بالحي الباقي القيوم، ذي الجـلال والكمـال، وتكون هذه المحبة سائقا وشائقا للعبودية الحق، وإسلام القياد لمالك الأرض والسماوات، وإن الشكر والمحبة والحمد، هي ثمرة الحياة، وغاية الكائنات.

4- وإذا كان القرآن الكريم قد بين مهمة الإنسان بقوله تعالى: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُون**)

فإن الأستاذ النُوْرْسي قد أفاض في بيان هذه العبودية، ومظهرها، وأنواعها ووسائلها، وآثارها، وغاياتها ...

يقول رحمه الله : المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه مظاهر الربوبية، وإن الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات ..[26]

وهذه العبودية يرى الأستاذ النُوْرْسي أن لها ناحيتين :

الأولى : عبودية تفكر بصورة غيابية.

والثانية : عبودية مناجاة بصورة مخاطبة حاضرة.

أما الأولى فهي : التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون، والنظر إلى كماله ومحاسنه بإعجاب وتعظيم، ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى المقدسة، وإعلانها ونشرها وإشاعتها ...

والثانية : هي مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر إلى المؤثر، فيرى أن صانعا جليلا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة...

ثم يرى أن له ربا رحيما يريد أن يحبب نفسه إليه بالآثار الحلوة اللذيذة لرحمته، فيقابله هو بجعل نفسه محبوبا عنده بالمحبة الخالصة، والتعبد الخالص لوجهه ..[27]

وكان رحمه الله يقول هذا الكلام وينثر هذه الأفكار إبان فورة العلم المادي، والتسارع بتطوره واكتشافاته، فأراد أن ينبه جميع المهتمين إلى أن هذه المكتشفات بكل أنواعها وتخصصاتها، إنما هي دالة على الله الحكيم، شاهدة على وحدانيته وقدرته، فمن استفاد من ذلك واهتدى إلى الصفات الإلهية العليا بهذه العلوم فقد دخل في العبودية الأولى، ومن سلم بالطاعة والانقياد والمحبة والاتباع فقد دخل العبودية في نوعها الثاني، وكملت بذلك عبوديته الفكرية والحسية، وأثرت فيه المعرفة والعلم، وأصبح عبدا كاملا لله، ظاهرا، وباطنا.

وقد وضح رحمه الله ضابطا دقيقا للتفكير الإنساني في غاية الأهمية مأخوذا من القرآن الكريم والسنة النبوية في قوله : التفكر نور يذيب الغفلة الباردة الجامدة، والدقة نار تحرق الأوهام المظلمة اليابسة، فإذا تفكرت في نفسك فدقق وتمهل، وتغلغل وفصله تفصيلا بمقتضى الاسم (الباطن)، وإذا تفكرت في الآفاق فأجمل وأسرع، ولا تغص إلا لحاجة إيضاح القاعدة كما هو مقتضى الاسم (الظاهر)، إذ شعشعة الصنعة أجلى، وأبهر، وأجمل..[28]

إنه يؤكد في جنبات كتاباته، وثنايا أفكاره أن الإنسان بالمعرفة الإيمانية التي توصله إلى العبادة الحق، يمنح قوة عظمى لا تقهر، يستطيع بها أن يجابه الكائنات كلها، ومن ذلك قوله: كما أن الإيمان نور، هو قوة أيضا، فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث، مستندا إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام..[29]

وإن عبودية الإنسان التي توصله إلى التسليم والعبادة تثمر في حياته أحسن الأثمار، وتتفتح عن أطيب الأزهار في كل وقت وحين، بل في أوقات يكون في أمس الحاجة إليها، يقول رحمه الله : إن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاء عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه تتحول إلى ثمار طيبة لذيذة من ثمار الجنة، وتقدم إليك في وقت أنت في أمس الحاجة إليها..[30]

وإن هذه العبودية ومقتضياتها هي مستحقة على الإنسان دون أن ينال عليها ثوابا أو أجرا، بل بما بسط له من نعم، وما يتقلب فيه من خيرات وجوده ووجود ما حوله، يقول رحمه الله : إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة.

نعم نحن قد أخذنا أجرتنا من قبل، وأصبحنا بحسب تلك الأجرة المقدمة لنا مكلفين بالخدمة والعبودية، لأن الخالق جل وعلا الذي ألبسك الوجود، وهو الخير المحض، قد أعطاك باسمه الرزاق معدة تتذوقين، وتتلذين بجميع ما فرشه أمامك...

وبما وهب لك من الإسلام والإيمان الذي هو الإنسانية الكبرى، والذي يطلب نعما لا نهاية لها ويتغذى على ثمار الرحمة الإلهية التي لا تنفد ...

فيا نفس لقد قبضت مقدما كل هذه الأجور والأثمان، ثم كلفت بالعبودية، وهي خدمة لذيذة، وطاعة طيبة بل مريحة خفيفة، أ فبعد هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرفة ؟ !..[31]

إنه يدقق فكرة في غاية الأهمية عند أهل السنة والجماعة ويبسطها وهي قولهم: (لو عذب الله الخلائق كان منه عدلا، ولو أدخلهم الجنة كان منه فضلا)، فقد شرحها بأحسن شرح وأحسن الأدلة.

5- أما وسيلة تحقيق هذه العبودية كاملة بعد الاستسلام، فهي عند الأستاذ النُورْسي الدعاء، الذي طلبه الحق سبحانه وتعالى في كتابه من عبيده في آيات كثيرة، ليقوموا به، ويتوجهوا إليه، بل هو مخ العبادة كما جاء في الحديث الشريف، ولهذا كان الدعاء

مظهر العبودية ووسيلتها، وقد أعطى الأستاذ النُورْسي هذا المظهر والوسيلة ما يستحقان من بيان وتفصيل في دلالتهما وآثارهما، وكشف عن ذلك في عديد من كتاباته ورسائله ومنها قوله : إن الإنسان متعرض لما لا يحصى من أنواع البلاء والمصائب، ومهاجمة الأعداء لما يحمل من عجز مطلق، وله مطالب كثيرة وحاجات عديدة، مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له، لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس، الدعاء بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ومخها ..[32]

ويقول رحمه الله : إن الإيمان يقتضي الدعاء، ويتخذه وسيلة قاطعة بين المؤمن وربه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق فإن الله سبحانه وتعالى يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه بقوله: [**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**]، وبقوله تعالى: [**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**] ..[33]

فما على الإنسان إلا أن يعلن أمام عتبة الألوهية العجز والضعف، ويفصح عن فقره وحاجته بلسان التضرع والدعاء وأنه عبد لله.

ويرى رحمه الله أن الدعاء هو نتيجة الإيمان الخالص، لأن الداعي يظهر بدعائه أن الذي يهيمن على العالم كله ويطلع على أخص أموره، يحيط بكل شيء علما، هو القادر على إغاثته، وإسعاف مقاصده [34].

وقد كشف بأفكار في غاية الأهمية أن الموجودات كلها داعيات مسبحات بلسان الاستعداد، والقابلية المودعة فيها، فالحبوب، والنوى، تسأل بارئها أن يهيء لها النمو والاستمرار لتتمكن من إبراز بدائع أسمائه الحسنى وقدرته لتعرضها أمام أنظار المؤمنين، والجاحدين.

وهذه الموجودات لها نوع آخر من الدعاء تسأل الله بلسان حال الفطرة بما تحتاج إليه من النماء والبقاء، وهو خارج عن طوقها وقدرتها، فيمدها الرحمن الرحيم، ويجعلها بذلك حجة على الجاحدين، وشاهدا قاطعا للموحدين.

وأما دعاء البشر خاصة فقد جعله نوعين، فعلي، وهو الأخذ بالأسباب الميسرة للحياة، وقولي؛ وهو التوجه باللسان والكيان إلى الله تعالى.

وقد فصل القول في آثار الدعاء على الداعي، وجعل أعظمها أثرا أن الداعي يزداد يقينا ويرتفع درجة بعلمه أن هناك من يسمعه ويترحم عليه ويسعفه بدوائه وقدرته التي تصل إلى كل شيء، فيدخل الأنس إلى قلب الداعي، ويشعر بحضوره الدائم في حضرة الله تعالى، فيفرح وينشرح، ويزداد ثناء وإيمانا ودعاء ويرتقي في مدراج الزلفى والقربى.

يقول رحمه الله : تأمل في سعة التوحيد الخالص الذي يهبه الدعاء للمرء، وانظر مدى ما يظهره الدعاء من حلاوة خالصة لنور الإيمان وصفائه، وآفهم من حكمة قوله تعالى: [**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**]..[35]

وقد بين رحمه الله شروط قبول الدعاء، وأسباب رفعه إلى السماء في عدد من كتاباته[36]، كما بينه سالكو الطريق من قبل، ولكن بيانه يتميز بالواقعية وسرعة النفاذ إلى القلب والعقل.

6- وإذا كانت العبودية غاية وهدفا، والوصول إلى الله تعالى مقصدا في حياة الإنسان، فإن الإمام النُوْرْسي قد خط طريقا جديدا في وصول العبد إلى ربه، اقتبسه من نور القرآن الكريم على خلاف ما هو معهود عند الطرق الصوفية، والمذاهب الفكرية، مستندا إلى (أستاذه) القرآن الكريم، ومن خلال تجربته وفهمه أكد أنه طريق قصير، مضمون العواقب والنتائج.

يقول رحمه الله : مورد جميع الطرق الحق، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم، إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم، وقد استفدت من فيض القرآن الكريم بالرغم من فهمي القاصر طريقا قصيرا، وسبيلا سويا، هو :

طريق العجز، والفقر، والشفقة، والتفكر.

ويقارن بين هذه الطريق، وطريق أهل السلوك، ويؤكد أن اختياره هذا حقيقة شرعية، أكثر مما هو طريقة صوفية.

ويقول : ولا يذهبن بك سوء الفهم إلى الخطأ، فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير، إنما هو إظهار ذلك أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس، وأما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في اتباع السنة والعمل بالفرائض، ولا سيما إقامة الصلوات باعتدال الأركان، والعمل بالأذكار عقبها، وترك الكبائر..[37]

ثم يبين أن كل خطوة من هذه الخطوات الأربع في طريق الوصول إلى مرضاة الحق سبحانه ترتكز إلى آية كريمة بل آيات، فالعجز: منبعه قوله تعالى [**فلا تزكوا أنفسكم**] [النجم: 32]، والفقر منبعه قوله تعالى: [**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**] [الحشر: 19]، والشفقة منبعها قوله تعالى: [**وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**] [النساء: 79]، والتفكر منبعه قوله تعالى: [**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ**] [القصص: 88].

وكأنه أدرك رحمه الله ولاحظ أن الإنسان المسلم وقد طلب إليه القيام بالمهام العظمى، قد غرق في سجن التفكير العقيم، مما أوصل بعضهم إلى وحدة الوجود، التي توهم أصحابها أن الكائنات عدما، فأصبح الإنسان المسلم مشلولا، عديم الفاعلية،

كسولا عاجزا عن ترقية ما وهب من قابلية، فأراد انتشاله من حالة أصبحت مرضا مزمنا، ورشه بماء القرآن ليعود نديا مورقا دون أن ينزع هذا الجزء الأصيل في الإنسان، بل وضعه على الفكر الصحيح، بتنبيه وجيز، وتجربة عميقة ومستند لا ينازع، وقال عنه في صدر حديثه: هذا الذيل قصير جدا، له أهمية عظيمة، ومنافع للجميع.

فهو أشبه ما يكون بلطمة تأديب، وصفعة إيقاظ – كما يعبر هو رحمه الله –.

وختمه بقوله: إن هذا الطريق لا ينظر إلى الموجودات بالمعنى الأسمى أي أنه لا ينظر إليها أنها مسخرة لذاتها ونفسها، بل يعزلها من هذا، ويقلدها وظيفة أنها مسخرة لله [38].

وهذه الطريق بهذا المعنى حاجة إنسانية عامة، وبها يكون الداعي متضرعا، داعيا بلسان حاله ومقاله على الدوام، ويرتقي بذلك إلى أعلى شرف، ويخاطب أهل الإيمان بقوله: فيا معشر أهل الإيمان إن درعكم المنيع لصد أولئك الأعداء هو التقوى المصنوعة في دوحة القرآن الكريم، وإن خنادقكم الحصينة هي سنة نبيكم عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما سلاحكم فهو الاستعاذة والاستغفار والالتجاء إلى الحرز الإلهي.. [39]

7- إن الإمام النُوْرْسي قد تحدث عن الإنسان في حالتيه الدنيوية والأخروية وربطهما ربطا محكما لا ينفصم، بأدلة كثيرة من العقل والواقع، والشعور والإحساس الإنساني، فإذا ما أراد الإنسان أن يكون سعيدا في حالتيه منعما في مرحلتيه فيجب عليه أن يسخر طاقاته وقدراته، وتفكيره ومشاعره، إلى الباقي، إلى الخلود، الذي هو فطرة مغروزة فيه، ويرى أدلتها كل يوم من حوله، يقول رحمه الله: في فطرة الإنسان عشق شديد للبقاء... إن جميع الآهات والحسرات الناشئة من أنواع الفراق، إنما هي تعابير حزينة تنطلق من عشقه البقاء، ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئا، بل يصح القول: إن سببا من أسباب وجود عالم البقاء، والجنة الخالدة، هو الرغبة الملحة للبقاء المغروز في فطرة الإنسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود. [40]

ويؤكد أن هذه الأشياء الموجودة المبثوثة، لم تخلق للفناء، بل للبقاء وإن فناءها الظاهري ليس إلا تسريحا لها من خدمة ومهمة قد أدتها، والشيء قد يفنى من جهة، ويبقى من جهات عديدة.

يقول رحمه الله : تأمل هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية إنها تنظر إلينا مبتسمة لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي نتفوه بها تودع آلافا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها، وهي إفادة المعنى، فالزهرة التي ترحل بعد أن تودع في ذاكرة كل من شاهد صورتها الجميلة الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صورة فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها...

وستفهم أن الإنسان لم يترك حبله على غاربه، ولم يترك حرا طليقا ليرتع أينما يريد، بل تسجل جميع أعماله وتلتقط صورها وتدون جميع أفعاله ليحاسب عليها.

وستفهم أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة ليس فناء نهائيا أو إعداما أبديا، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها، وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنستهم الغفلة مهامهم ومنعهم السكر من الشكر...

وستفهم أن الصانع الدائم لهذا العالم الفاني له عالم غير هذا، وهو عالم باق خالد يشوق عباده إليه، ويسوقهم إليه [41].

وبهذا المعنى الدقيق وأثره الواسع يتوجه الأستاذ النُورْسي بالخطاب إلى الإنسان ليستفيد من لحظات عمره القصيرة بتحويلها إلى عمر مديد طويل لا ينقطع بناء على استعداده في حياته القلبية والروحية اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية، وبلبوس العبودية الحق، فيصير هذا العمر القصير الفاني عمرا أبديا في دار الخلود والبقاء..[42]

وتكون كل لحظة يقطعها الإنسان في سبيل الله تعالى، ومعرفته ومحبته، وابتغاء مرضاته، قدرا لا يحد من البقاء الذي لا يعتريه الفناء، بينما هذا العمر المحدود بعيدا عن الله، وفي غفلة عنه كله لا يساوي لحظة عابرة أو ثانية عابرة.

فما على الإنسان إلا أن يولي وجهه شطر الملة الإبراهيمية، ويقول على غرار إبراهيم عليه السلام: [**لا أُحبُّ الآفلينَ**] ويتوجه إلى المحبوب الباقي..[43]

فسعادة الإنسان ووظيفتهَ الأساس إنما هي التوجه إلى الباقي بكامل جهوده وجوارحه، وبجميع استعداداته الفطرية سائرا قدما في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنى، مرددا بجميع لطائفه من قلب وروح وعقل، ما يردده لسانه: يا باقي أنت الباقي[44].

وينصح تلامذته وإخوانه والسائرين في هذا السبيل بأن الوسيلة لتحصيل هذه المنافع والمغانم في نعيم البقاء هي: اعملوا لله، التقوا لوجه الله، اسعوا لأجل الله، ولتكن حركاتكم كلها لمرضاة الله – لله ، لوجه الله، لأجل الله – وعندها تتحول دقائق العمر القصير إلى سنين طويلة [45].

إن الأستاذ النُورْسي حين تحدث إلى الإنسان رابطا عالميه الدنيوي والأخروي معا، قد كشف له عن معاني آيات القرآن السمعية من القيامة وحشرها، والميزان ومعناه، والجنة ولذائذها، والنار وأهوالها وما تخفيه للمعاندين الجاحدين، كل ذلك بلسان القرآن والسنة الشريفة، وبتقريب من عالم الواقع الإنساني في نفسه وفكره وحافظته وما يحيط به حتى إنه يؤكد بعد ذكر الأدلة على قطيعتها وأنها ترقى إلى درجة الشهود، ويؤكد أن طريق

البقاء والخلود في النعيم هو العبودية الحق، واتباع القرآن الكريم والسنة الشريفة، والتوجه من خلالهما إلى الحي الباقي.

يقول رحمه الله مخاطبا النفس الإنسانية : يا نفس إن كنت تريدين أن تنالي عملا أخرويا خالدا في عمر قصير، وإن كنت حقا تريدين أن تري فائدة كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل، وإن كنت حقا تريدين أن تحولي العادة إلى العبادة وتبدلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة، فاتبعي السنة الشريفة، لأن تطبيق السنة والشرع في معاملة ما يورث الطمأنينة والسكينة، يصبح نوعا من العبادة بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة [46].

8- وفي الختام فإن الأستاذ النُوْرْسي جعل كتاباته كلها للإنسان لهدايته وتثبيت الإيمان في قلبه وفتح بصيرته على حقائق الكون من حوله، وقرب له عالم الغيب بعالم الشهادة، وأقام الدلائل والبينات والحجج والعلامات ليكون هذا الإنسان ربانيا عابدا لله يعرف موقعه الصحيح من هذا الكون شاكرا لأنعم ربه، عاملا بهديه، محققا لمراده، خالدا بجواره في جنانه ورضوانه.

يقول رحمه الله : وكما أنه – أي ذو الجلال – قد أنشأ هذا العالم الأكبر ملكا له، كذلك خلق الإنسان مملوكا له، ومنحه من الأجهزة والجوارح والحواس والمشاعر... ويكون سيدا على ذلك المملوك سوى ذلك المالك للملك الذي جعل الموجودات كلها بدءا من عالم الذرات ذلك العالم الواسع جدا إلى جناح الذباب ملكا ومزارع، وجعل الإنسان الصغير ناظرا على ذلك الملك الواسع العظيم ومفتشا فيه، ومزارعا وتاجرا ودلالا وعابدا ومملوكا، واتخذه ضيفا عزيزا عليه، ومخاطبا ومحبوبا [47].

لقد كان الأستاذ النُوْرْسي في تفكيره ورسائله يغترف من معين القرآن، ويطابقه مع حياة وواقع الإنسان بكل تقلباته وأحواله.

وكان حديثه عن الإنسان حديث الناطق بالقرآن، الداعي إلى هداية الرحمن، المنادي في سوق الحياة وعطاءاها العلمية وتقدمها المادي إلى سعادة الإنسان الأبدية في لحظاته القصيرة الدنيوية الفانية، وفي دار الخلود والدوام.

ومما يلاحظ أنه لم يكن يكثر الاستشهاد بالقرآن ولا يكثر من ذكر الآيات التي تتعلق بموضوعه، واعتقادي أن ذلك كان عن قصد لأنه يريد دفع الملحدين الجاحدين، والغافلين الجاهلين بالحجج المادية الملموسة وهم لا يؤمنون بالقرآن، فيجابههم بمفاهيمهم وبما يؤمنون به.

إن هناك قضايا إنسانية كثيرة قد عالجها هذا الإمام تستحق العناية والدراية كالغرائز الذميمة في الإنسان، وآثارها وكيفية التخلي عنها، وصفة أهل الإيمان، وأهل العناد

والطغيان كما يراها الإمام النُوْرْسي والشبهات التي تجر الإنسان وهبط بـــه ... وغـــير ذلك كثير مما يستحق الوقوف أمامه بتفصيل.

إن أفكار هذا الإمام منيرة أخاذة حية ناضرة ما أحوج الإنسانية اليوم إليهـــا لتنقـــذ الإيمان من التفسيخ والاجتثاث، والأخلاق من الانهيار الذي أناخ بكلكله على البشرية.

إنه بأفكاره رحمه الله حاضر بيننا يداوي علل المسلمين وغيرهم، فيقـــدم علاجـــات قرآنية جاهزة فعالة، فما أحرى الباحثين والمفكرين والدعاة أن يستفيدوا من هديه وفكره وسلوكه، ويقتبسوا من مكتوباته ورسائله ؟!!

الهوامش

---

1 انظر المكتوبات ص 411.
2 انظر المكتوبات ص 456.
3 انظر المرشد لأهل القرآن ص 79.
4 انظر المرشد لأهل القرآن ص 40.
5 انظر الكلمات ص 812.
6 انظر الكلمات ص 24.
7 انظر الكلمات ص 41-355.
8 انظر الكلمات ص 204.
9 انظر الكلمات ص 828.
10 الكلمات ص 366-376.
11 الكلمات ص 366-376.
12 انظر الكلمات ص 371.
13 انظر الكلمات ص 111.
14 انظر الاسم الأعظم ص 77.
15 انظر الكلمات ص 204.
16 انظر الكلمات ص 111-402.
17 انظر الكلمات ص 371.
18 انظر مرشد أهل القرآن ص 44.
19 انظر مرشد أهل القرآن ص 73.
20 انظر مرشد أهل القرآن ص 87.
21 انظر الكلمات ص 806.
22 انظر الكلمات ص 823.
23 انظر المكتوبات ص 50.
24 انظر المكتوبات ص 303.
25 انظر اللمعات ص 595.

26 انظر مرشد أهل القرآن ص 59.
27 انظر الكلمات ص 27.
28 انظر مرشد القرآن ص 19.
29 انظر الكلمات ص 352.
30 انظر الكلمات ص 352.
31 انظر الكلمات ص 413، والسنة منهاج ومرقاة ص 40.
32 انظر الكلمات ص 355.
33 انظر الكلمات ص 356.
34 انظر المكتوبات ص 390.
35 انظر المكتوبات ص 386، والسنة مرقاة ومنهاج ص 52.
36 انظر منها : المكتوبات ص 360.
37 انظر المكتوبات ص 594.
38 انظر المكتوبات ص 595.
39 انظر اللمعات ص 111.
40 انظر السنة النبوية منهاج ومرقاة ص 72، وانظر تفصيلا كبيرا في الكلمات ص 223.
41 انظر الكلمات ص 80.
42 انظر مرشد أهل القرآن ص 76 والسنة النبوية 77،72.
43 انظر الكلمات ص 418.
44 انظر اللمعات ص 26.
45 انظر مرشد أهل القرآن ص 76.
46 انظر الكلمات ص 416.
47 انظر المكتوبات ص 302.